شجرة الكمثرى المسحورة

للكاتب الشهير بوكاتشو
للأستاذ محمد كامل حجاج

كان بمدينة أرجوس اليونانية نبيل تقدمت به السن ، فأراد أن يبحث له عن زوج تكون له عوناً على شيخوخته ، فتزوج من ليديا وكانت من أسرة عظيمة جميلة محبوبة . كان الرجل غنياً جداً ينفق بسخاء ؛ وكان مولعاً بالصيد ؛ وكان له عدد كبير من الكلاب والصقور والخدم . وكان من بين حاشيته شاب حسن الوجه أنيق الهندام يعمل كل ما يطلب منه بمهارة وسرعة ، فكان موضع ثقة سيده .

شغفت ربة البيت بهذا الشاب ، فكان لا يهدأ بالها إلا إذا رأته أو تحادثت معه . ولقد زاد حبها ضراماً فلم تقو على كبحه ، وصممت أن تفاتحه به . وكان من بين خدمها امرأة تدعى لسك تميل إليها وتثق بها ، فقالت لها ذات يوم : « إن ماصنعتِه معى من الجميل وتعلقك بى يشهدان بطاعتك واحتفاظك بالأسرار ، وآمل ألا تبوحى لأى فرد كان بما سأسره إليك . إننى فتية قوية كما ترين ، لا ينقصنى شىء من الجمال والمال ، ولو كان زوجى من سنى أو كنا متماثلين في المزاج لأرضى رغباتى . وأعترف لك بأننى لست عدوة لنفسى حتى أبحث عما لا أجده عند زوجى . وما وجد الزواج إلا للتمتع بلذات الحب التى حرمت منها . وقد وقعت عيناى على بيروس ليحل محل زوجى من هذه الوجهة ؟ وهو شاب شريف محبوب . ولقد رأيت أنه أجدر من غيره . ولقد تيمنى حبه وأصبحت لا أفكر إلا فيه ، وإن لم أتمتع بحبه فإننى أموت كمداً . وأظن أنك لا تحجمين عن مساعدتى . فعرفيه بالطريقة التى ترين أنها مناسبة بما أكنه له من العواطف المتأججة ، واجتهدى في إقناعه بالمجيء إلىّ عند ما أدعوه

طمأنت الخادم سيدتها ووعدتها بتنفيذ رغبتها ، ورأت فرصة سانحة لمخاطبة بيروس ، وكان ذلك فى نفس اليوم ، فأسرت إليه بما دار بينهما من الحديث فدهش الفتى من هذه المفاجأة مع أنه لم يلحظ شيئاً من ذلك قبل هذا اليوم ، وخاف أن يكون هذا شركا منصوباً لاختباره فقال لها : « إننى لا أقتنع بصدق ما تقولين ، ولا أظن سيدتى تكلفك بهذه المهمة . وإن كانت أرسلتك حقاً فلا أظن ذلك إلا مزاحاً . وإنى أرعى عهد سيدى فلا أسمه بهذه الاهانة ، فلا تكلفى نفسك مشقة مجادلتى فى هذا الموضوع مرة أخرى . فأفهمته لسك بقسوة رفضه وقالت له : « مهما كان ذلك يضايقك فاننى لن أتأخر فى إخبارك بما تكلفنى به سيدتى . وقصارى القول أرجو أن تكون بصيراً حكيما »

ولما علمت السيدة ليديا جواب بيروس فضلت الموت . وبعد بضعة أيام خاطبت خادمها فى حبها المتأجج فقالت لها : « إن الشجرة لا تقطع بضربة واحدة . ويجب أن تعيدي الكرة مع بيروس الذى

يريد أن يكون مخلصاً لسيده . ترقبي الفرص المناسبة لتصوري له فرط غرامي وتباريح آلامي ، فليس من فائدتك ولا من فائدتي أن تهملي هذا الموضوع فانك تجازفين بحياة سيدتك

فمزت الخادم سيدتها ووعدتها بأنها ستحاول إقناعه بكل الوسائل . ثم ذهبت إلى بيروس فوجدته معتدل المزاج مسروراً فقالت له : « لقد فاتحتك منذ بضعة أيام وقلت لك إن النار اشتعلت فى فؤاد سيدتى وإن استمررت فى رفضك فانك ستخاطر بصحتها وحياتها، ولا تكن عديم الشعور أمام آلامها . أى فخر أن تكون محبوباً من سيدة ذات شأن كهذه ! ترو فى أمرك فستصبح فى مأمن من الفقر، وسيكون لك أفخر السلاح وأجود الخيل وأجمل الثياب وأغلى الحلى بخلاف الذهب والفضة . وستقابلك اليوم بذراعين مفتوحتين ، فلا تنزع ذراعيك منهما إن كنت لا تريد أن تكون لها عدواً أو تصبح فقيراً معدماً تتخبط فى دياجير البؤس والفقر . إنك تضحكني حينما أفكر فى أوهامك وخزعبلاتك

فكر بيروس طويلا وتأمل فى كلام لسك وقال لها : « إننى طوع أمرها إن كانت تقنعنى بحسن نيتها لأننى أعلم طباع زوجها . ولربما اتفق الاثنان على أن تتصنع لى الحب لتختبر أمانتى ؛ ولدى وسيلة إن هى نفذتها اطمأننت إليها وسلمت لها قيادى، وهى أن تقتل باشق زوجها فى حضوره ، وتنزع خصلة من شعر ذقنه وترسلها إلىّ ، وتخلع سناً من أجل أسنانه » وقد وجدت الخادم وسيدتها أن هذه الشروط الثلاثة لا يمكن أداؤها ولكن الحب لا يعدم الوسائل للحصول على رغباته . فأرسلت إلى بيروس تنبئه بقبول هذه الشروط . ومادمت تظن أن سيدك حكيم بصير بالأمور كثير الشكوك فسأريك كيف أخدعه على مرآى منه وأجعله يظن أن ما شاهده لم يكن إلا وهماً . دهش بيروس مما قالته سيدته وانتظر بفارغ الصبر طريقة التنفيذ

وفى ذات يوم أولم زوجها وليمة فاخرة لأصدقائه فأخذت زوجته الباشق ولوت عنقه أمام بيروس وجميع الحاضرين ، فصرخ زوجها قائلا ماذا عملت؟

فلم ترد عليه والتفتت إلى النبلاء الحاضرين وقالت : « انني انتقمت من هذا الباشق لأنه سبب لى كثيراً من الآلام مما لا يمكنكم أن تتصوروه ، فطالما أبعد عنى زوجى إذ يأخذه ويخرج للصيد قبل طلوع الشمس كل يوم تقريباً ، وقد صممت من زمن على قتل هذا الطائر ، ولكننى انتظرت هذه الفرصة السانحة لأشهدكم أكنت محقة فى عملى أم لا ؟ فظن الحضور أن الزوجة ما أقدمت على هذا العمل الفظيع إلا لشدة تعلقها بزوجها وطفقوا يضحكون . ثم التفتوا إلى زوجها وقد كاد يتميز من الغيظ وقالوا له : « أتفضل هذا الطائر على زوجك ؟ ولقد أحسنت بأن تخلصت من مزاحها . ولما دخلت الزوج إلى غرفتها تمادى الحضور فى مزاحهم حتى أن نيكوسترات فارقه حزنه وطفق يضحك مثلهم من هذا الانتقام الوحيد فى بابه

وقد استبشر بيروس من تنفيذ الشرط الأول وغرق فى بحار أمانيه

وبعد أيام كانت الزوج تداعب زوجها وكان متهللا مستبشراً فرأت الفرصة سانحة لتنفيذ الشرط الثانى فجعلت تدلله وتعانقه ثم نزعت خصلة من ذقنه فتألم الرجل أيما ألم وغضب وقال لها فكرى ماذا تعملين ياسيدتى ؟ فقالت له : « أتغتاظ ياسيدى من خمس أو ست شعرات وأنا لم أغضب حينما جررتنى

من شعرى منذ هنيهة ؟ وقد أرسلت الخصلة فى نفس اليوم الى بيروس

والشرط الثالث هو بلا شك أصعب الشروط ، ولكنه لا يصعب على العشاق ذوى العقول الراجحة . وكان لزوجها حاجبان من أسرتين عظيمتين أحدهما يشرف على شرابه والآخر على طعامه ، فأوهمتهما سيدتهما أنهما أبخران وأوصتهما بأن يبعدا رأسهما إلى الوراء حينما يقدمان إلى سيدهما شيئاً ففعلا بوصية سيدتهما

وبعد بضعة أيام قالت الحسناء لزوجها : ألا لاحظت سحنة حاجبيك حينما يقدمان إليك شيئاً ؟

— نعم لاحظت وقد أردت أن أسألهما عن السبب

— لقد لاحظت ذلك من زمن ، ولكنى خشيت أن أفاتحك فى الأمر . والآن قد لاحظ ذلك غيرى فقد رأيت أن أحذرك ، ولا أعلم سبب ذلك ؛ وإني أصارحك بأن رائحة فمك كريهة جداً ، وربما كان ذلك من سن نخرها السوس . ثم اصطحبته إلى الكوة وفتحت فمه ثم قالت له إن سنك منخورة ومتعفنة ، وإن خلعتها أبعدت الضرر عن أسنانك الأخرى .

— سأبحث فى طلب الجراح ليقلعها

— إن هؤلاء كالجلادين ولا يستدعى الأمر حضورهم وسأخلعها أنا بنفسى دون أن أحدث لك ألماً . ثم أخرجت الخدم ولم تترك إلا السك وأوصدت الباب ، ثم أضجعته وجعلت رأسه فى حجر الخادم لتمسك به لئلا يتحرك ثم فتحت فمه وخلعت أجمل أسنانه بشكل عنيف تركه يصرخ من الألم ولبث هنيهة كالمغشى عليه . وفى هذه الأثناء أخفت السن الجميلة التى خلعتها وأبدلتها بأخرى نخرة متعفنة ثم قدمتها له قائلة : « انظر إلى السن التى احتفظت بها طوال هذه المدة ! ومن المحقق أنها لو تركت أفسدت جميع أسنانك . وقد نزف الجرح كثيراً من الدم ، ثم شرب أكسيراً مقوياً وارتمى على سريره كالميت

ثم أرسلت زوجه السن إلى بيروس دون أن تضيع شيئاً من الوقت . فاطمأن لها وقال إنه طوع إشارتها .

كانت الحسناء لا تألو جهداً فى إظهار حبها ؛ وكانت تعد الساعات كالسنين ولم يبق عليها إلا إرضاء حبها على مرأى من زوجها ، وأخبرت لسك بيروس بالدور الذى سيلعبه . ثم تصنعت المرض ، وذهب بعد الظهر لمقابلة سيدته ، وفى هذا الميعاد يجلس رب البيت مع زوجه . ولما رأت الاثنين مجتمعين أظهرت رغبتها فى استنشاق الهواء فى الحديقة ورجتهما أن يقوداها إلى ، فأسندها زوجها من جهة وبيروس من الأخرى وذهبا بها إلى شجرة كمثرى وجلس الثلاثة على بساط جميل من الخضرة . وبعد آونة اشتهت السيدة أن تأكل من الكمثرى فرجت بيروس أن يتسلق الشجرة ويقطف بعض الثمار الناضجة فأطاع وصعد وتصنع أنه رأى سيده يداعب ويعانق زوجه وصاح : ما هذا يا سيدى ؟ وكيف تسول لك نفسك أن تعمل هذا فى حضورى ؟ وأنت يا سيدتي ألا تخجلين من مثل هذا اللعب ؟ كفى ، فان هذه الأمور لا تجرى أمام الناس . أليس الليل طويلا ؟ هل خرجتما إلى الحديقة لأجل هذه الأعمال ؟ ألم تكن عندكم غرف وأسرة كافية ولائقة ؟ فقالت المرأة لزوجها : ماذا يعنى بهذا القول ؟ هل فقد حجاه ؟

— لا يا سيدتى فإني لست بمجنون . إنى أرى جيداً ما أراه . ثم قال له الزوج بعد ما ضحك من قوله : « إنك تحلم حقاً »

— إنني لا أحلم مطلقاً .

ثم قالت زوجته : ربما تراءى له مايقول

— تأكدي من قولي يا سيدتي فلست واهماً

— إنزل إذن !

— ولما نزل قال إني أراك الآن منفصلا عن سيدتي وبعيداً عنها

— إنك تحلم يا مسكين ، لأني لم أبرح مكاني

ثم قال بيروس: ربما كانت هذه الشجرة مسحورة

فأراد الزوج أن يتحقق بنفسه من هذه المسألة ليتأكد إن كانت الشجرة مسحورة . فصعد بدوره، وما كاد يستوى فوق أغصانها حتى قام بيروس وزوجه بتمثيل دورهما من عبث وعناق

— ماذا تصنعين يا سيدتي ؟ ! وأنت يا بيروس أتخدم سيدك بهذه الصفة ؟

ثم أسرع فى النزول فرجع العاشقان كل منهما إلى مكانه والتزما السكون والحشمة

— ما هذا يا سيدتي ، أتقترفين هذه الفضائح أمام عيني ؟ وأنت أيها الوغد ... فقاطعه بيروس :

« إني أعترف أنكما كنتما حكيمين عند ما صعدت على الشجرة. والذي ظننت أني رأيته لم يكن إلا سحراً . والذى يكمل إقناعى أن سيدى ظن أنه رآني شيئاً لم يكن

— لا تحاول أن تعتذر فما رأيته لم يكن سحراً ولكنه حقيقة . ثم قالت امرأته إنه مجنون مثل بيروس . وأظن أنك قادر أن تتصور مثل هذه التصورات على حسابي ، وإن كان الأمر كذلك ، فانى أثور

ثم قال بيروس : « أتهين سيدتي بمثل هذا الكلام، وهى مثال الاستقامة والعفة؟ ثم قامت الزوجة متصنعة الغضب لتضلل زوجها الأبله وهي تقول :

— أتظن أنني بعد هذه الأعوام الطوال أتجرأ على اقتراف هذه الفضائح على مشهد منك ؟ وتأكد أنني إذا كنت أريد شيئاً من هذا القبيل لا أعدم الوسائل لارتكابها دون أن تشعر . وإذا كانت كل هذه المصائب من هذه الشجرة المسحورة فانى لا أريد أن تؤذيني بعد هذا أو تضر امرأة غيرى . ثم التفتت إلى بيروس وقالت له : « أحضر فأساً واقطع هذه الشجرة واحرقها » فصدع بالأمر . ثم التفتت إلى زوجها وقالت له : « وحيث أنى أرى الآن عدوة فضيلتى ممدودة على الثرى، فانى أعفو عنك وأسامحك وأوصيك من الآن فصاعداً أن تكون عندك فكرة أحسن من تلك عن امرأتك التى تحبك أكثر مما تستحق ألف مرة . ولقد سر الزوج أن رأى عقيلته تعفو عنه واعتذر لبيروس عما فرط منه من الشك ودخل الثلاثة القصر مغتبطين مسرورين

وبهذه الطريقة خدعت المرأة زوجها وخانته وفضحته . ومن هذا اليوم عاش بيروس مع سيدته بدون كلفة ينعم معها بلذات الحب بحرية أوسع من حريته حينما كان تحت شجرة الكمثرى

محمد كامل صواج